وزارة الثقافة

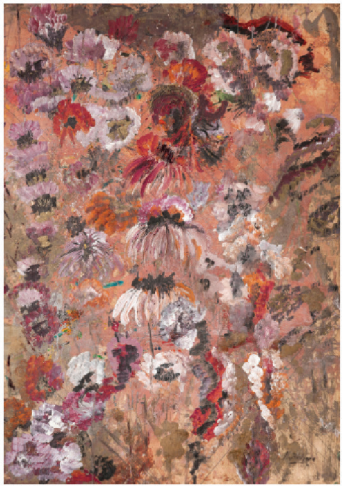

الزهور

تأليف: قسطنطين ثيودري

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

الزُّهور

مجموعة خواطر وآراء

تأليف: قسطنطين جورج ثيودري

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٢٨
عن المطبعة التِّجاريَّة في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: قسطنطين جورج ثيودري
اسم الكتاب: الزهور
الطبعة الأولى: ١٩٢٨ عن المطبعة التِّجاريَّة في القدس

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنانة: نهيل بشارة

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

الزُّهور

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

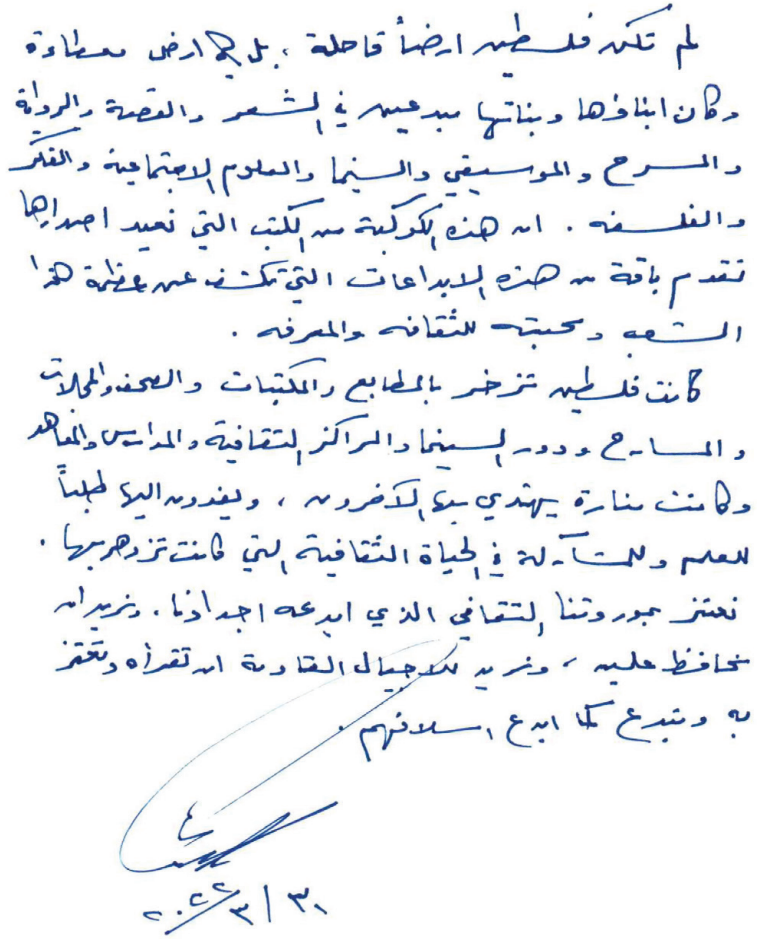

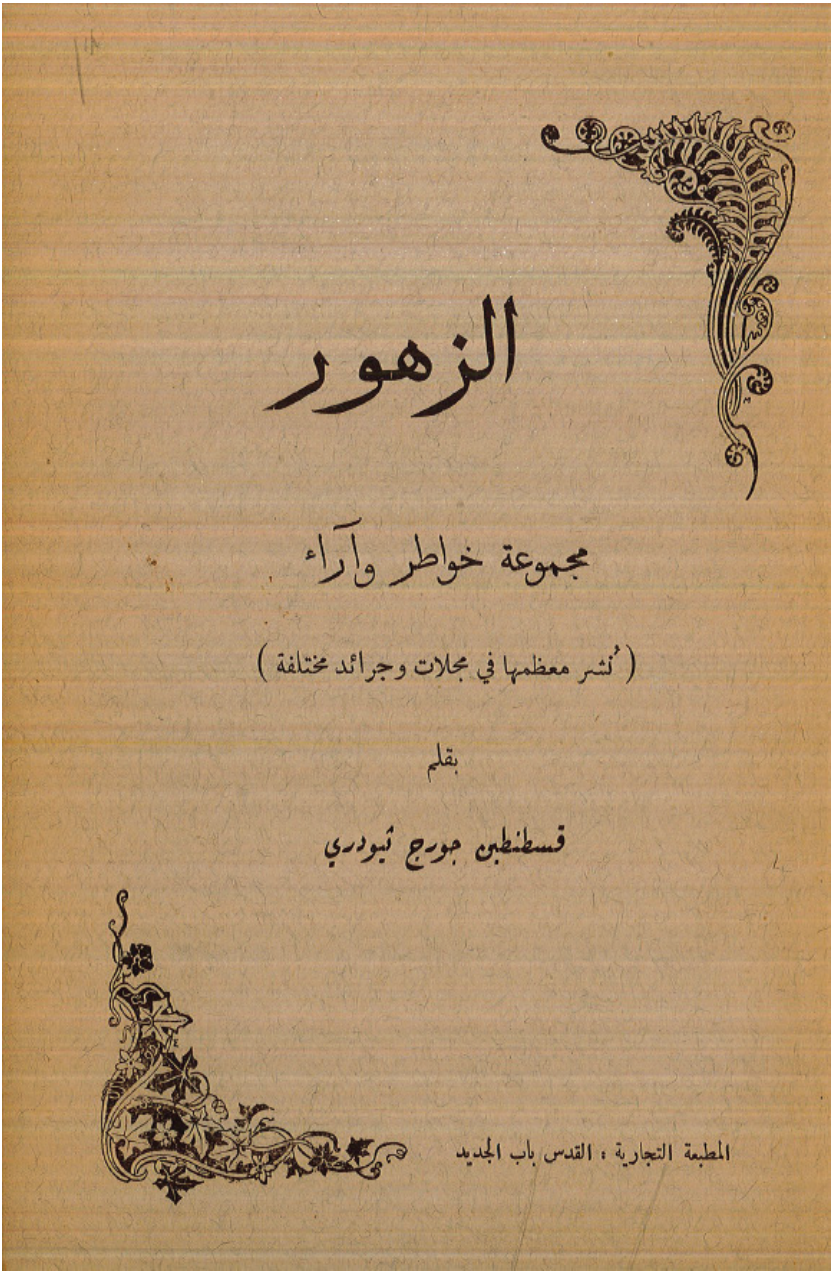

الغلاف الأصلي للكتاب

إهداء الزُّهور

إلى الشَّـبيبة المتنـوّرة الرَّاقيـة، إلى العقـول الهائمـة في مسـارح الحقيقـة وفي سـهول الحكمـة وفي مهابـط الكـمال، إلى الأرواح الكبـيرة والقلـوب الواعـي، إلى كلّ متعطِّـش لتحـسّي كـؤوس الحـقّ والحريَّـة والحـبّ والجـمال، أهـدي هـذه «الزُّهـور» فـإذا مـا لاقـت قبـولًا وإقبـالًا كان لي مـا أرجـو مـن الأجـر، وإلَّا فحسـبي اللـه ونعـم الوكيـل.

قسطنطين

العقل

العقـل يقسـم إلى ثلاثـة أقسـام: العقـل الكامـل، والعقـل الناقـص، والعقـل المفقـود، وأعنـي بـه الجنـون. فمـن كان ذا عقـل كامـل فقـد نـال وطـرًا كامـلا في هـذه الحيـاة، ومـن كان ذا عقـل ناقـص فقـد نـال نصـف الوطـر، ومـن كان عدمًـا منـه كان نصيبـه العـدم. وسـبحان اللـه عـز وجـل الـذي يهـب الإنسـان مـا يشـاء.

الفكر

الفكـر السـامي مصـدره العقـل الكامـل، فمـن كان ذا فكـر سـام كان ذا عقـل كامـل، وبالعكـس، ولا يكـون الـكلام دائمـا دليـلا عـلى سـعة العقـل، فكـم مـن متكلـم يكـون كلامـه مجمـوع حـروف وليـس مجمـوع معـان. وليكـن معلومًـا أن ليـس كل مـن خـط كلمـة فقـد أوجـد بهـا معنـى، وكـم مـن أنـاسٍ حـبّروا ولا يزالـون يحـبِّرون المقـالات الطويلـة دون أن تجـد لهـا معنـى أو تـدرك لهـم مقصـدًا، فإنمـا أمثـال هـؤلاء يكتبـون لمـلء فـراغ الـورق ليـس إلا. وكـم ممـن مسـك القلـم وهـو ليـس أهـلا لأن يمسَّـه وهـو بذلـك يتهجـم عـلى أشرف مـا خلـق اللـه مـن صناعـة، ويدعـي لنفسـه مـا هـو منـه بـراء.

الشعور أو الإحساس

كل إنسان شاعر (حسَّاس) غير أن الشعور درجات متفاوتة، وأعظم شاعر في الأرض هو الذي يكتب بما يشعر. فالشعر إذن منظومًا كان أم منثورًا هو نتيجة الشعور، فمن كان أكثر شعورًا، كان أكثر تأثرًا وتألما، ومن لا يتأثررولا يتألم فهو ميت العواطف، فاقد الشعور.

الإكثار من الكلام

إن مـن أكـثر مـن الـكلام كان ثرثـارًا، والثرثـرة كـما لا يخفـى دأب الحمقـى البلـداء. فمـن أراد أن يخلـو كلامـه مـن النقـص أو العيـب فعليـه مراعـاة هـذه القواعـد الثـلاث (١) أن يكـون الـكلام لـداع يدعـو إليـه؛ لأن مـا داعـي لـه هذيـان. (٢) أن يقتـصر الـكلام عـلى مـا تدعـو إليـه الحاجـة، فإنـه إن لم ينحـصر بالحاجـة ويـفِ بالمـراد كان حـصرًا، وإذا تجـاوز المطلـوب كان هـذرًا. (٣) أن يختـار اللفـظ مناسـبا لمقـام المخاطـب. قـال أحـد الحكـماء: «كلام المـرء بيـان فضلـه وترجـمان عقلـه، فأقـصره عـلى الجميـل، واقتـصر منـه عـلى القليـل» وقـال غـيره: « فـم العاقـل ملجـم، إذا هـمَّ بالـكلام أحجـم، وفي الجاهـل مطلـق كلـما شـاء أطلـق»

«وَزِنِ الـكلامَ إذا نطقـتَ فإنَّمـا

يبـدي عيوب ذوي العيوب المنطقُ

التَّمدُّن العصريُّ

لقـد بلينـا في القـرن العشريـن بحـب التقليـد والتخلـق بأخـلاق الغـير والتشـبه بعاداتهـم، ولا يقتـصر هـذا الـداء الوبيـل عـلى البعـض ممـن يدعـون التمـدن حسـب، بـل يتنـاول كثـيرا مـن الجهلـة والسـذج مفاخريـن بمـا وصلـوا إليـه مـن التهذيـب والمعرفـة ومـن لهـم بمـن ينصحهـم ليرجعـوا عـن أضاليلهـم، ويرشـدهم لينزعـوا عـن بصيرتهـم غشـاوة الجهـل. والمصيبـة الدهـماء أن هـؤلاء لا يقفـون عنـد هـذا الحـد مـن هيامهـم في أوديـة الضـلال، وركوبهـم مـتن غوايتهـم، بـل يحاولـون أن يظهـروا للمـلأ أنهـم مـن أهـل العقـل الواسـع، والعلـم الوافـر!!

نيلُ العِلمِ «لِبَعضِهِم»

أخي لا تنالُ العِلمَ إلَّا بستةٍ

سأنبيكَ عن تفصيلِها ببيانِ

ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ

وصحبةُ أستاذٍ وطولُ زمانِ

همُّ وتعريفُ الحياةِ

يقول الذين تاهوا في شعاب الباطل، وغاصوا في بحور الجهل، وأطلقوا لنفوسهم عنان هواها، إنه لا حاجة إلى تعريف الحياة؛ لأن كلًّا منا يحسن فهمها مع أنهم لا يعرفون ما هي الحياة ولا يفهمون معنى وجودهم فيها. فهم والحالة هذه أشبه برجل تتقاذفه الأمواج ظنًّا منه أنه سيحصل المكان الذي يقصده. والحقيقة أنه تحت رحمة الأمواج لا تحت تصرف ظنه.

وهكذا يصرفون العمر في الجهل المركب، والظنون العقيمة موقنين أنهم يفهمون، ولو أقروا أنهم على عكس ذلك لكانوا إلى تعريف الحياة يصلون، والحقائق يلمسون.

بعضُ شعراءِ الشَّرقِ

الشاعر الحقيقي هو ذاك الفرد الذي يريك في أبيات شعره عقلًا كبيرة ومعانيَ مبتكرة وتخيلاتٍ ساميةً وخفةَ روحٍ ومتانةَ لغة وصحة تعبير، وذلك كله بأسلوب تسجد لبداعته أفهام الألباء، وتحيا برقته موات الخواطر والقلوب، وقد وصف أبو العباس الناشئ شعره قال:

يتحيَّرُ الشُّعراءُ إن سَمِعوا بهِ

في حسنِ صنعتِه وفي تأليفِه

فكأنَّهُ في قربِه من فَهمِهم

ونكولِهم في العجزِ عن تصريفِهِ

شجرٌ بدا للعينِ حسنُ نباتِه

ونأى عن الأيدي جنى قطوفِه

وقد قُيِّضَ للشرق أن يظهر فيه بعض أفرادٍ، شعرهم يسبي اللّبَّ ويأخذ بمجامع الفؤاد، بلى، وأكثر من ذلك، فإنه يصدئ الأفهام ويظلم القلوب. هؤلاء الأفراد هم الذين انتحلوا لنفوسهم اسم شعراء وما هم شعراء.

في أبيات شعرهم ألفاظ تشمئز منها النفوس وتنكرها الأذواق. نعم وفي شعرهم تبديل وتكلف، لا الروية ضربت فيه بسهم، ولا الفكر جال فيه بقدح، بل هو شعر بارد العبارة، ثقيل الاستعارة، سخيف التشبيه، تنبو عن قبوله الطباع، وتتجافى عن استماعه الأسماع.

أولئك بعض شعراء الشرق! ونعم الشعراء!! وعند الزنوج جماعة يحسنون الرقص على نقر الطبول، هم شعراؤهم، بل شعراء الوحشية الذين يكتبون بأسنانهم وأظافرهم لا بأقلامهم وأفكارهم.

الاهتمامُ بالقشـورِ دونَ اللّبابِ

إنّي كثـيرًا مـا أرى عـددا عديـدًا مـن الطلبـة يتمسـكون بتافـه الأشـياء مـن العلـوم وغيرهـا، غـير مكترثـين بجوهرهـا ولا بوجـه مـن وجـوه أصلهـا. وقـد أصبحـت هـذه المسـألة كالبحـث عـن أصـل الحيـاة، إذ تُـرِكَ عـلى جنـبٍ ودار الحديـث عـلى ظواهرهـا مجـردًا عـن غرضهـا أو أصلهـا، وهـذا غلـط مـضر بـكل فـرد منـا، إذ يجـب علينـا أن نبحـث عـن جواهـر الأشـياء غـير مخدوعـين بظواهرهـا.

ونحــن إذا كان جــل اهتمامنــا في «ضربَ زيــدٌ عمــرًا» والاكتفــاء بذلــك، فليضربنَّــه حتــى يــذوب قفــا عمــرو أو تشــلّ يــد زيــد.

الاعتِدادُ بِمَا فَوقَ الطَّاقةِ

إن العاقـل الحصيـف مـن عـرف نفسـه تمـام المعرفـة، وجـرى مـن حيـث القـولُ والعمـلُ مجـرى الاعتـدال، غـير متعـدٍ دائـرةَ ذاتيتـه، ولا متظاهـرٍ بمـا ليـس فيـه.

قال الحكيم المشـهور ابن سينا:

خـيرُ النُّفـوسِ العارفـاتُ ذواتِهـا

وحقيقَ كميَّاتِ ماهيَّاتِها

وبمـا الَّـذي حلّـت ومـمَّ تكوَّنَـتْ

أعضـاءُ بنيتِها على هيئاتِها

ومـن أراد الارتفـاع إلى مـا فـوق طاقتـه في حـين أنـه ليـس قـادرًا عـلى ذلـك، خانتـه قـواه ورجـع بصفقـة المغبـون، وفي مثـل الغـراب حينـما حـاول أن يتعلـم مشـية الحجـل فلـم يفلـح، ونـسي مشـيته الأولى عـبرة لأولي الألبـاب.

الفـرقُ بينَ المِلْءِ والفراغِ والإقرارُ بهِما

(لشاعرٍ حكيمٍ)

إذا كانَ دوني مـن بُليـتُ بجهلِـه

أبيـتُ لنفسي أن تُقابل بالجهلِ

وإن كانَ مثـلي في محـلّي مـن النّهـى

أخـذتُ بحلمي كي أجلَّ عن المثلِ

وإن كنـتُ أدنى منـهُ في الفضـلِ والحجـى

عرفـتُ لهُ حقَّ التَّقدُّمِ والفَضلِ

مَوتُ الفَقيرِ

عـلى جبـل مـن الجبـال سـطا المـوت باسـطًا جناحيـه عـلى فتـى اتخـذ لـه الجبـل مسـكنًا. هنـاك في الوحـدة والسـكينة اللتـين تفعـمان النفـس مهابـة وجـلالا. سُـمِعَتِ الريـح تبـكي عـلى حيـاة الفتـى، والجبـل ينعـي سـوء حظِّـه، فكانـت الأولى أمَّـه، و كان الثـاني أبـاه.

غـادرت روحـه كنَّهـا، وبقـي جثمانـه مطروحـا عـلى قمـة الجبـل أيامـا طـوالا، ولم يمـر في هـذه الايـام أحـد فـيرى مـا كان وينقـل الجثـة الهامـدة المنتنـة حيـث تسـتحق.

انقضـت مـدة والجثـة مجدلـة في مقرهـا، ولكـن قُيِّـضَ لهـا في الانتهـاء أن تذهـب فريسـة الطيـور والوحـوش.

هكـذا عيش الفقير، وهـذه حالته ومتى زاره حبيبه الموت.

تربيةُ الأولادِ

الأمّ المـربي الأول لـلأولاد، والمدرسـة المـربي الثـاني، والعـالم المـربي الثالـث. فـإن أجـاد المـربي الأول التربيـة ولم يحسـنها المـربي الثـاني فـلا خـوف عـلى الولـد مـن المـربي الثالـث. أمـا إذا تهـاون المـربي الأول فيهـا، وأفـاد المـربي

الثـاني، فكل الخوف من المربي الثالث.

إذن علوا أولادكم التربية الأولى فهي أسـاس متين لكل تربية بعدها.

أعمى البصيرةِ

يقولـون في كل حـادث لا يأتي على ما يريدون: أأنت اعمى؟

يســتعيدون هــذا القــول ويســتعيدونه كأنمــا خلقــوا للســخرية، أو نشــأ العمــى ليكــون موضــوع اســتهزائهم.

مسـاكين. أقـل مـا يقـال فيهـم إنهـم جهـلاء هائمـون في دياجـير الضـلال، رب بصـير أعمـى البصـيرة وكـم مـن كفيـف ذي بصـيرة، عـسى ألَّا يكـون القـوم عميـا وإن كانـوا ذوي أبصـار.

الكتابة

أردت الكتابة فلم أتمكن منها، فقلت إذ ذاك متعجبا: كيف يمسك أولئك القلم ويملؤون الصحائف دون أن يعترض يدهم أو فكرهم عارض فيقفون؟!

ولكن عدت فقلت: أَكُلُّ من حمل اليراع سُمِّيَ كاتبا؟ أوَكُلُّ من حبَّر مقالةً أو مقالاتٍ صار من أهل الكتابة؟

قليل من يحسن فهم كلمة كتابة، وأقل من يجيد استعمالها. ولمعترض أن يقول: أتنكر وجود عدد عديد من الكتبة البارعين عندنا؟

أجيب: كثيرا ما تخدع الظواهر البصر وتحير اللب، فهل كل سوداء ثمرة، أو كل صهباء خمرة، الكتاب الحقيقيون قلال ولا غرو:

تعيرُنا أنَّا قليل عديدنا

فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ

والكتَّاب المتظاهرون (الكُوَيْتِبُونَ) لا تحصيهم الكثرة.

فالفرقُ بينَ الحقيقيِّ والمجازيِّ ظاهر، وأثرة الكثرة على القلة غير جائز.

الذَّكاء غير التَّعقُّل

الرَّجـلُ أعقـلُ مـن المـرأةِ، وقـد تسـاويه ذكاء، إنَّمـا تنقصـه تعقُّـلًا. وهـذا الحكـم لا ينطبـق عـلى جميـع النِّسـاء، فمنهـنّ مـن يفقـن مـن الرِّجـال تقُّـلًا وذكاء، إنَّمـا هـذا شـواذ والشّـواذ لا يُقـاسُ عليـه في الغالـب. وإنَّـا لـنرى كثيريـن مـن اللُّصـوص والمحتالـين ومـن شـابههم أذكاء، غـير أنَّ هـذا لا يمنعنـا أن نشـكّ أنَّهـم ليسـوا عقـلاء. فالعاقـل غـير الـذَّكيّ، والعكـس بالعكـس.

إذن جـرِّب أن تكون من العقلاء الأذكياء.

قطرات أفكار

الأمّ ثلاثة؛ أمُّك الوالدة، وأمُّك المدرسة، وأمُّك العالم.

رأيت الباطل يهطع فقلت له ما وراءك؟ قال الحقّ. إنَّ رفض السّعادة الفرديَّة والمنفعة الشَّخصيَّة هما في نظل العاقل خاصّة من خواصّ حياته، كما أنَّ الطَّيران خاصّة من خواصّ العصفور.

لا ينال السَّعادة الحقيقيَّة إلَّا من عرف غرور الوجود الحيوانيّ، وحرَّر حياته من ربقة الاستعباد الدَّاخلي.

القلب الميَّال يتنبأ، وغالبًا يصدق.

العقل الذي لا يتنفَّس العلم غير مستكمل الصِّفات.

ليس الفخر لمن يبدأ عملًا، بل إنَّ الفخر لمن ينهيه.

لو كان ثلث ما تتكلَّمه أفعالًا لكنَّا في حاجة ماسَّة إلى أيادٍ ميكانيكيَّة.

إذا قرأتَ كتابًا وفهمته، فقد ملكته، وإن لم تفهمه فقد ملكك.

الحبّ كلمة جمعها أسير الهوى، ورتب حروفها ذو شعور ناطق.

من طلب الشُّهرة من لا شيء، أتته المذمّة بلا تعب.

إذا أردت صيرورتـك محنكًا مختـبرًا، عليك أن تذوق العلقم كثيرًا.

الحقيقـة لا تظهـر إلَّا مـن وراء حجـب كثيفـة، فـإذا زالـت كثافـة هـذه الحجـب، احتجبـت، إذن أيـن الحقيقـة؟

لم أجد صديقًا من المستحيل وجود صداقته في غيرِه من الأصدقاء.

بواطـن بعض النَّاس سرٌّ من أسرار الوجود.

الوجـودُ خـيرٌ من العدم، وخير من الوجود العدم.

الحيـاة مجمـوع وظائـف، فـإن أدَّيتهـا بكمالهـا، تناولـك التَّقـدُّم، ونلـت المطلـوب.

لا يشـترط أن تتوفَّـر في المـرء الصِّفـات العقليَّـة مكتملـة، بـل قـد تكـون غشـيمة ناقصـة في أوَّل الأمـر، غـير أنّ مـرور الأيَّـام وعمليَّـة التَّطـوُّر الزَّمنـيّ كفيلـة بصقلهـا وإبلاغهـا أعـلى درجـات الكـمال.

إنَّ أعظـم مفكّـر في الأرض يكـون في بـدء نبوغـه بالتَّفكـير، ضعيـف الـرأي لا تـرضي أفـكاره وتـلا تقنـع نظريَّاتُـه.

لا يكفـي أن نمـلأ عقولنـا علـمًا وفلسـفة، بـل يجـب علينـا أيضًـا معرفـة الأخـلاق الحسـنة والمبـادئ الصَّحيحـة.

الزّهـرة إذا ذبلـت وتناثـرت أوراقهـا، لا تبكيهـا أو تتأسَّـف عليهـا الزُّهـور، ولكـن إذا كات الإنسـان بـكاه القـوم وناحـوا عليـه، وعنـدي أنَّ مـوت الزّهـرة لأرقـى وأرفـع مـن مـوت الإنسـان؛ ذلـك لأنَّ الطَّبيعـة بأسرهـا تتنهَّـد وتـذرف الدُّمـوع عليهـا، أمَّـا الإنسـان فبعـض أفـراد.

الزَّهـرةُ النَّاطقة والزَّهرة الصَّامتة

خاطبـت مـرَّة زهـرةٌ أختَهـا فقالـت: مـا لي أراكِ صامتـة سـاكنة، لا تتحرَّكـين ولا تعـين مـا يـدور حولـك؟ آه مـا أبسـطكِ يـا أختـاه! فأجابـت الزَّهـرة السَّـاكتة: إنّي أتكلَّـم، إنَّمـا أنـتِ لا تسـمعين، وأتحـرَّكُ وأنـتِ لا تبصريـن، وهـل تغترّيـن بـكلّ مـا يبـدو أمامـكِ مـن سـطحيَّات وظواهـر؟!

هكـذا النَّـاس قسـمان؛ القسـم الأوَّل دعـيّ جاهـل ينخـدع بالصُّـور الظَّاهريَّة، ولا يـدرك أنّ هنـاك صـورًا باطنيَّـةً للإنسـان، والقسـم الثَّـاني هـادئ متحـرِّك، صامـت ناطـق، لا يفهـم نفسـيته ومـا ينطـوي عليـه مـن مواهـب إلَّا جبابـرة الـرُّوح، ومـا أقلّهـم بيننـا!

الأَثَرَةُ

قال الشتاء مرة للخريف: «أنت تعري الطبيعة من أكسيتها، أما أنا فأسقيها وأروي العطاش» فسمع كلامهما الربيع فقال: «أنا أفضل منكما؛ لأني أكسو الطبيعة بحلل فاخرة، وأزينها بأحسن المفروشات» وإذ سمع كلامهم الصيف قال: «إني لأقوى منكم وأنفع، فشمسي دائما ساطعة تضيء الأكوان، وفواكهي وثماري أشبع بها الجياع».

هكذا الناس في الحياة أربعة أنواع، كل نوع مفيد ولازم لأخيه، ولكن لابد أن تتوسط الأثرة في كل أمر».

الخَرُوفُ

حـاد خـروف مـرة عـن الطريـق، فنصـح لـه إخوانـه قائلـين «خـير لـك ياصـاح أن تسـير معنـا، فرئيسـنا - ويعنـون بـه الكبـش - إذا رآك منفصـلا عنـا اقتـص منـك ورمـاك بعيـدا» فقـال لهـم: «إن رئيسـنا واحـد، أمـا نحـن فكثـيرون، ألا نقـدر أن ندافـع عـن أنفسـنا، أو نقتـل هـذا الرئيـس فنتخلـص منـه إذ هـو يتلاعـب بنـا كـما يشـاء، ويقيـد حريتنـا بسلاسـل حديديـة»

خـروف أراد أن يسـتقل ويتحـرر مـن عبوديـة رئيسـه واسـتبداده، فلـماذا نحجـم نحـن الشرقيـين «العاقلـين» عـن تحريـر نفوسـنا مـن ربقـة اسـتعباد بعـض الجائريـن الطامعـين، وحتـى متـى نبقـى مسـتنمين للـذل والهـوان جبنـا، وللاسـتبداد كرهـا وظلـما؟!

الغَرِيبُ والشَّبَحُ

مـر يومـا رجـل غريـب بمقـبرة، فـرأى جـمال القبـور وفخامتهـا، فقـال في نفسـه: «مسـاكين نحـن، ففـي بلادنـا يدفـن الميـت في قـبر وضيـع حقـير، وليـس في مقبرتنـا قـبر يضـارع أحـط هـذه القبـور» فـتراءى إذ ذاك لـه شـبح وخاطبـه قائـلا: «مـاذا غـرك أيهـا الغريـب أجميـل بنـاء هـذه القبـور أم بديعـة هندسـتها أم طولهـا وعرضهـا، أخدعتـك ظواهرهـا، لمـاذا لم تسـل عـما فيهـا؟ ألا اعلـم أن سـاكني هـذه القبـور أغنيـاء بخـلاء، لم يصنعـوا في حياتهـم خـيرا، ولم يحسـنوا لفقـير أو أرملـة، وقبـل موتهـم أوصـوا أن تصنـع لهـم قبـور فخمـة جميلـة، فـكان لهـم مـا طلبـوا، فقـل لي الآن مـن تفضـل قبـور الأغنيـاء أم الفقـراء» قـال هـذا واختفـى، أمـا الغريـب فرجـع مـن المقـبرة متأمـلا متحفظـا وقـد ملـئ قلبـه ورعـا وزهـدا.

الشَّيخُ الحَكِيمُ

مـرَّ شـابٌّ بشـيخ يحفـر قـبرًا، فقـال لـه متهكِّـمًا: لمـاذا تتعـبُ نفسـك أيُّهـا الشَّـيخ لأجـل دريهـمات قليلـة، ولمـن هـذا القـبر؟ فأجـاب الشَّـيخ: «لا يعيش الإنسـان بـلا عمـل، أمَّـا هـذا القـبر فهـو لي، فـإذا مـتُّ طُويـتُ فيـهِ»

فذهب الشَّـاب متَّعظًا خجلًا قائلًا لنفسـه: «حقًّا إنَّ هذا الشَّـيخَ لحكيمٌ».

شاعرٌ يَرثي شاعرًا

كيـفَ متّ أيُّها الطَّير الغـرد، وكيفَ عنَّ لروحِكَ أن تتركَ التَّغريد؟

كيـفَ مـتَّ أيُّها الطَّيرُ الجميلُ، إنَّ موسـيقى الطَّبيعةِ تبكي وتنوحُ

قرَّحـتَ جفني وجرحـتَ قلبي، فمن لي بعدَكَ من نصير

أثرت عواطفي، وهيَّجت أشـجاني، فإلى أينَ أسير؟

سَـعَة الفضـاء تضايقـت لأنَّـكَ لا تطـير، ولـونُ الهـواء تبـيّن أسـود حزنًـا عليـم، ولكـنَّ الشُّـعراءَ تمنطقـوا لأنَّـكَ قـد فنيـت.

***أم في «صهيـونَ» تَـرثي عند الصَّباحِ وحيدًا لَهَا»**

أو

رِثاءُ الشَّرقيّات

عِـم يا بنيَّ فها قد أُعِدَّ الفَطور

اسـتيقظ من نومِك فالشَّمسُ على الأبواب

قم يا بنيَّ، فقد نشَّـفتَ مرارتي، مالكَ لا تُجيبُ؟

***

ليتَ رسـول الموتِ اختطفني قبل أن زارك

ليتنـي يا ولـدي في مكانك، أو ليتني لم أحبل بك

ليت اللـهَ ينصفُني فيأخذني إليك

***

يعلـمُ اللـهُ يـا ولـدي أنّي تركـتُ مـن بعـدك الطَّعـام جانبًـا، والجفـون مقروحـة، والعيـون مسـفوحة، ألا تنظـرُ إليّ؟

بـودّي لـو تسـمع زفـراتي، وأنَّتـي، وحـسرتي، لكنـتَ تقـولُ إنَّ أمّـي سـتموتُ

حزنًـا وتنغيصًـا، مـا ضرَّك يـا ولـدي لـو لم تغـادرني.

***

آه ما أقسـاكَ يا رسـولَ الموتِ وما أظلمك، لماذا حرمتني وحيدي؟!

أتفرحُ يا رسـولَ الموتِ لبكائي ونشـيجي، وصياحي وضجيجي؟

أعيـدكَ في مصـابي وبـلائي وأشـجاني وأوصـابي، إنَّ هـذا لمنتهـى الظُّلـمِ والقسـاوة

***

يـا ربِّي! ماذا عملتُ وما أذنبـتُ حتَّى تفقدَني وحيدي وفلذة كبدي؟

وإن كنـت قـد أخطـأتُ إليـك، فلـمَ لم تأخـذني إلى لدنـك؟ المجـدُ لاسـمِكَ يـا ربّ، آه ليتـك أخذتنـي بـدلًا منـه.

***

ثـمَّ تعودُ مخاطبةً وحيدَها:

ألا لسـت بعائشةٍ وأنتَ في القبر

لستُ بمستطيبةٍ الحياةَ وأنتَ عنّي بعيد

ألا وسِّع لي محلًّا بجانبك

أسئِلَةٌ وأجوِبَتُها

ما هو الأدبُ؟

هو الفكرُ والعواطفُ والشُّعورُ والبيانُ واللُّغةُ

ما هو الشِّعرُ؟

هو الفكرُ والإلهامُ والخيالُ والعواطفُ والشُّعورُ والبيانُ واللُّغةُ

ما هو النَّظْمُ؟

هو اللُّغةُ والقوافي والكلماتُ القاموسيَّةُ الثَّقيلةُ

الأبيَضُ والأسوَدُ

ما كلُّ أبيض أبيض، ولا كلُّ أسود أسود، فلربَّما كان تحت البياض سواد، أو تحت السَّوادِ بياضٌ، هذه قاعدةٌ سننتها مطابقة على حياة كثير من البشر؛ لأنَّ من البشر - كما يزعمون - عقلاء وحصفاء ونَقَدَة وحكما، وما هم بالحقيقةِ إلَّا عكس ذلك، ومنهم وطنيُّون مخلصون وأوفياء شرفاء، وما هم الآخرة أدنياء، ولكنّ هنالك قومًا واراهم ظلُّ اللَّيل الحالك، وخيَّم عليهم السُّكوت النَّاطق، فأسوا في عيون النَّاس - ولا أحد يرضي النَّاس - سوادًا في جماد، وما هم وربِّ الحقِّ إلَّا الوطنيُّون المخلصون، والعقلاء العاملون، والحكماء النَّافعون، إذن ليس كلّ ما تراه أبيض أبيض، ولا كلّ ما تراه أسود أسود.

التَّشاؤمُ والتَّفاؤلُ

في الحيـاةِ فريقـانِ: الأوَّلُ ينظـرُ إليهـا بطـرفٍ متشـائمٍ، والثَّـاني بطـرفٍ متفائـلٍ، ومـا الفـرقُ بـين الفريقـين إلَّا أنَّ الأوَّل يـرى الشَّـقاء الغالـب في هـذه الحيـاة، والثَّـاني يـرى نقيـض ذلـك. تُـرى أيّ الفريقـين أعقـل وأحكـم، الأوَّل أم الثَّـاني؟ الجـواب عـن هـذا أنَّ الفريـق الأوَّل يشـعر بالشَّـقاءِ فيتأثَّـر ويحـزن وييـأس، بعكـس الفريـق الثَّـاني فإنَّـه يشـعر بـه ويبتسـم لـه كأنَّـه ضرب مـن ضروب الرَّجـاء والهنـاء، ففـي الأوَّل عقـل وحكمـة؛ لأنَّـه يشـعر ويتأثـر، ولكـن العقـل والحكمـة في الثَّـاني أجـود، والصَّـدر أرحـب، لأنَّـه يشـعر فيتأثـر غـير أنَّـه لا يحـزن ولا ييـأس، إذ لا يـرى فائـدة في كلّ ذلـك، فـكلّ إنسـان سـائر إلى الفنـاء لا محالـة، فبـدلًا مـن أن يقـضي أيَّامـه في الاستسـلام للشَّـجن واليـأس، عليـه أن يجاهـد ويتعـب، ويكـون مـن العاملـين النَّافعـين، فيمـوت مبقيًـا لـه ذكـرًا لا يمـوت.

الشَّمعة والشرقيُّونَ

دخـل رجـلٌ إلى بيـت صديـقٍ لـه، فوجـده منـارًا بقنديلـين، وبجانبهـما شـمعةٌ تنـثر دموعهـا، فبـادر الرّجـل قائـلًا: ألا يكفـي أنَّـك أنـرت هذيـن القنديلـين، فأضـأت الشَّـمعة أيضًـا، أليـس هـذا لـزوم مـا لا يلـزم؟ فلـم يُحـر صاحـب البيـت جوابًـا.

هكـذا نحـن - الشَّرقيِّـينَ - نصنـع كلّ شيء فـوق إمكاننـا قصـدَ التَّفاخـر والتَّباهـي، نشـتري السـيَّارات، ولا لـزوم لنـا للسـيارات. نتطـرَّف في لبسـنا، نتطـرَّف في زينـة بيوتنـا، ولا ضرورة لذلـك كلِّـه، نتكلَّـم فـوق طاقتنـا، ونـأكل فـوق طاقتنـا؛ ولهـذا ترانـا في فقـر مـالي وعقـليّ مسـتمرَّيْنِ، فمتـى الرُّجـوع يـا تُـرى إلى الهـدى والاعتـدال؟

النَّهارُ واللَّيلُ أو الرَّجلُ والمرأةُ

إنَّ الشَّمس تشرق في النهار، والقمر والنجوم تضيء في الليل، والإنسان في النهار والليل بين أنوار وأضواء طبيعية، فهو لا يحسب للنهار حسابا لأنَّ فيه ما يتمتع به بصره ويستمد منه النشاط والحياة، ولا يخشى الليل لأن فيه إما بدرًا بادرا أو نجومًا ساطعة براقة يتسلى بها ويطمح ببصره الى لألائها حتى أنه ينسى أن في الليل ظلاما. إذن في النهار حياة وفي الليل حياة، وما الفرق بين الحياتين إلا أن الأولى في ضوضاء وأنوار طبيعية، والثانية في سكوت وأنوار طبيعية ولا طبيعية. ولنقف بخشوع واحترام أمام الليل والنهار، ونتعمق في مشاهدة ما فيها من الغرائب المحيرات الشاهدة على حكمة الخالق وجبروته، ولنمجِّد الله ونسبحه ونشكره من صميم الفؤاد على جمل عطاياه وبديع سناياه، ولنتساءل بعدئذ: هل يمكن أن يستغني النهار عن الليل أو الليل عن النهار؟ الجواب طبعا كلا. وهل يمكن أن يستغني الرجل الذي هو النهار عن المرأة التي هي الليل أو بالعكس (أترك الجواب للقارئ الفطن) ولعل القارئ ينسبني إلى الظلم وخشونة الذوق لأني شبهت المرأة بالليل؛ أي بالظلام، ولكن أقول إن في الليل أسرارًا كما أن في المرأة أسرارا وإن لم تكن في هذه الأسرار أنوار تضارع أنوار النهار؛ أي أنوار الرجل، وعلى كل

فـأسرار الليـل أكـثر وأعمـق مـن أسرار النهـار فتأمـل:

إن الرجـل مهـما كان عاقـلا وحصينـا، لا بـد أن يفتـح صنـدوق أسراره لمـن يهـواه ويركـن إليـه، أمـا المـرأة فـإذا أرادت أن تبـارز بأسرارهـا، فتبـارز بأسرارهـا الظاهريـة فقـط، أمـا أسرارهـا الباطنيـة العميقـة فـلا تكاشـف بهـا أحـدا؛ لأنهـا لا تسـتطيع ذلـك، فتبقـى إذ ذاك مطويـة في صدرهـا مجهولـة حتـى المـمات. إذن في المـرأة أسرار مكتومـة، كـما أن في الليـل أسرارًا مخفيـة، وفي الرجـل أسرار تعلـن، كـما أن في النهـار أسرارًا تُفهَـم، ولمـا رأى النهـار أن لا غنـى لـه عـن الليـل قـط، أخـذ يمـده بأنـوار شمسـه السـاطعة، وعبـاد اللـه يمدونـه بأضـواء لا طبيعيـة فـوق الطبيعيـة، وضـف عـلى ذلـك أن اللـه عندمـا رأى أن مخلوقـه آدم لا يقـدر أن يعيـش وحيـدا خلـق لـه المـرأة رفيقة لـه. فـإن لم تجـدوا أيهـا الرجـال الألبـاء الحكـماء المـرأة التـي هـي سر في الحيـاة والتـي لا تسـتطيعون المعيشـة بدونهـا بالتهذيـب والعلـم والاحـترام والمحبـة كنتـم جانـين عـلى الحيـاة، وهـل مـن جنايـة أكـبر وأعظـم مـن الجنايـة عـلى الحيـاة؟ وأنتـم أيهـا الكُتَّـاب الاجتماعيـون؛ الكُتَّـاب المفكـرون الناضجـون، إن لم ترشـدوا أهـل الحيـاة بمـا هـو ضروري ولازم للحيـاة، إن لم تجرعوهـم أدويـة الحيـاة الناجعـة، خنتـم وأذنبتـم أمـام الحيـاة، وحوكمتـم أمـام العـدل الإلهـي، واللـه ينصـف ويظلـم كل مسـتحق.

حلمُ لَيلَةِ علم

حلمت ليلة أمس أنّني كنت في حديثة مفروشة ببسطٍ من الزُّهور المختلفة النَّوع واللَّون، وعلى جوانبها أربع رايات مصنوعة من الورد والرَّيحان، والنَّرجس والأقحوان، ومكتوب على الرَّاية الأولى «الاتِّحاد» وعلى الثَّانية «التَّضحية» وعلى الثَّالثة «الثَّبات» وعلى الرَّابعةِ «النَّجاح» وفي سمائها علم كبير مطرّزة عليه كلمة «استقلال» بدموع العيون ودماء القلوب، وملوّنة بالأزاهر الشَّذيَّة العطر المتضوّعة الأريج، فدهشت من هذه الحديقة التي كانت مرتعَ النّواظر ومتنفّسَ الخواطر، وأردت أن أعرف لمن هي؟ فخرجت من رتاجها الفخم لأرى أحدًا أستدلّ منه على صاحبها، وبينما أنا أنظر ذات اليمين وذات الشّمال، إذا بي أقرأ على الرّتاج اسم «فلسطين» تحوم حيالها أرواح الشّعوب الغابرة، كأنَّها تريد أن تحميها وتصدّ عنها المطامع، فرقصتُ إذ ذاك فرحًا، وغُشِيَ عليّ اهتزازًا، ولما أن صحوت، جعلت أنادي كلّ من أراه في طريقي قائلًا: «تعالوا أيُّها القوم انظروا، ها قد نالت فلسطين كلَّ ما تصبو إليه، فجاء القوم ينظرون إليَّ متعجِّبين كأنَّ نفوسهم تقول ماذا حدث لهذا الفتى، ثمَّ دخلوا إلى الحديقة، وجعلوا يحدِّقون بما فيها، وبينا كنت أحدِّقُ معهم بفرح وطرب، سمعت أمّي توقظني بقولها «قم يا ولدي

فقـد أُعِـدَّ الفطـورُ» فاسـتيقظتُ مـن نومـي وأخـذتُ أفـركُ عينـي وأتمطَّـى تحفّـزًا للنُّهـوض، وشرعـت بعدئـذٍ أسـترجعُ إلى مخيّلتـي مـا انتباهـا مـن خيـالات اللَّيـل وأشـباح الأحـلام، ثـمَّ قلـتُ: «أفي يقظـةٍ أنـا أم في منـام؟»

فـما رأي إخـواني الفلسـطينيِّين في هـذا الحلـم، وهـل في إمكانهـم أن يجعلـوه علمً ؟

الصَّحَافَةُ

الصّحافـةُ صناعـةٌ وعلـمٌ وفـنٌّ، وقليـلٌ في فِلَسـطينَ مـن أتقـنَ هـذه الصِّناعـة بعلمهـا وفنِّهـا.

الصّحافـةُ حـربٌ وسـلامٌ، ومـا أقـلَّ الذيـن يجيـدونَ الحـروب، ويوجـدونَ السَّـلام.

الصّحافـةُ قسـطاسٌ عـادلٌ، وقليـلٌ هـم الَّذيـنَ يحسـنونَ اسـتعماله فيزنـون الأشـياء والأشـخاص بحكمـة وخـبرة وإنصـاف.

الصّحافـةُ جامعـةُ الأفـكارِ والأخـلاق والعلـوم، ومـا أقـلّ الذيـن تخرَّجـوا في هـذه الجامعـة فأحـرزوا منهـا شـهاداتٍ ناطقـةً بأهليَّتهـم واقتدارهـم.

الصَّحافـة، آه لـو يفقه معنى الصَّحافـة محترفوها، ويعملون بمقتضاه ...

الحِكْمَةُ

هـي تبكي وأنا أغيض دمعها

هـي تمشي وأنا أتتبَّع خطواتها

هـي تقول لي احضر فأمتثل أمامها

هي عندما تستشـعر بجهل النَّاس تبكي؛ ولذا أُنَشِّـف دمعَها وأواسـيها

هـي حينـما تشـاهد تمثيـل روايـات «فقـدان الحكمـة والحصافـة والرّزامـة» وتنظـر إلى معـرض العـادات السَّـخيفة، وتسـمع بالهـراء والتُّرَّهـات والأوهـام، تـولي ظهرهـا نحـو الغابـات لتجـد لهـا مسـكنا سـاكنا هادئًـا بعيـدًا عـن شـوائب المدنيـة وزمهريـر التمـدُّن وعـواء البعـض؛ فلهـذا أسـترق خطاهـا وأتتبَّعهـا حتَّـى أسـتطلع عـلى محـلّ إقامتهـا، وبعـد أن أدنـو منها تسـتدعيني فأمتثـل حيالهـا؛ لتعـرف مـن أنـا ولأعـرف مـن هـي.

***

وقفـتُ أمامهـا جامـدًا رغـم كيـاني المتحـرّك، ولم تلبـث أن أُخرِجَـت مـن فيهـا قنبلـة أيقظـت حـركات جسـدي، فاهتـزَّت لهـا روحـي، وأخـذت تتسـمَّع لبـكاء انفجاراتهـا: «معظمكـم أيُّهـا البـشر جاهلـون، تعـزّون ولا تفهمـون،

تقتفـون الخطـى وأنتـم عُمـي لا تبـصرون، تبحثـون ولا تدقِّقـون» صمـت الانفجـار طويـلًا لعـلّ مجيبًـا يجيـب فلـم، فعـادَ إلى مـا كانَ عليـه: «انزعـوا عنكـم أثـواب العـادات القتَّالـة، عالجـوا أنفسـكم بأنفسـكم، افرقـوا بـين خيركـم وشرِّكـم، وراحتكـم ونصبكـم، فقـد ضجَّـت الأرض مـن تحتكـم، وصاحـت السَّـماء مـن فوقكـم»

«أنتـم معلولـون أيُّهـا البـشر، الـدَّاء تعرفـون، والـدَّواء تجـدون، فَلِـمَ لا تتجرَّعونـه كالخمـر في أوقاتِـه ومواعيـده؟»

«أنتـم مخلوقـون للحكمـة والحكمـة مخلوقـة لكـم، فَلِـمَ لا تسـيرون بموجبهـا أو تسيِّركم هـي عـلى قواعدهـا، آه إنَّ ثلاثـة أرباعكـم حمقـى مغـرورون»

«هـذا ختامكـم ... هـذا ختامكـم ...» وسرعـان مـا أغلقـت فمهـا وتـوارت عـن عينـيَّ.

***

هـذه حالـة البـشر، تأتيهـم الحكمـة زائـرةً، فـلا يفهمونهـا فيكرمونهـا أو يفهمونهـا، ولكـن يتغاضـون عنهـا؛ لذلـك تتركهـم وتحتجـب عنهـم احتجابًـا بعيـدًا.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان